استطعت يوم السبت الماضي بعد محاولات متكررة أن أعثر على وسيلة للاتصال بالزميلة النائبة دلال سلامة، (وهي فتاة شابة تمثل أصالة الطابع والشخصية النسائية الفلسطينية المتطورة دون التخلي عن جذورها، وهي كذلك شعلة من الشعل المتوقدة بمخيم بلاطة، الذي أعطاها في انتخابات دائرة نابلس إلى المجلس التشريعي الفلسطيني كي تكون عنوانا للمخيم ونموذجا محترما للمرأة الفلسطينية المسيسة).

لقد رفضت النائبة الشابة مغادرة المخيم، وتشبثت بالبقاء والصمود مع الآخرين، تعبيرا عن الإصرار على مقاومة سياسة شارون الهادفة إلى اقتلاع الفلسطينيين من كل بقعة من بقاع وطنهم المنهوب.

وكانت دبابة من دبابات الاحتلال تقف أثناء إجراء المكالمة ذاتها على باب بيت دلال التي تحدثت مع ذلك بأسلوبها وصوتها المعتاد، دون أن تفوتها الإشارة أثناء الحديث إلى ما تنطوي عليه المذبحة الشارونية الجديدة من معاني سياسية.

قلت لها: " ماذا جرى لهواتفكم؟ وماذا جرى لجوالاتكم؟ نحن نحاول الاتصال لمعرفة أخباركم منذ أيام فلا نحظى برد."

قالت:" هو القصف والدمار الذي تسبب فيما تسبب في قطع العديد من خطوط الهاتف. ولكنني استطعت أن أتدبر الحصول على الخط الذي نتكلم منه الآن. وزاد الطين بلة انقطاع الكهرباء، فلم يعد في الإمكان إعادة شحن الهواتف النقالة والخلوية. "

سألتها: " وماذا عن الماء؟!" فأجابت " هو بدوره مقطوع، وهناك بيوت تعاني الانقطاع منذ اليوم الأول للحصار أي منذ عشرة أيام، وأهلها بالكاد يحصلون على ما لا يكاد يسد حاجتهم للشرب. وقبل قليل كان مكبر صوت البلدية يعلن الاعتذار عن عدم التمكن من إصلاح خطوط المياه بسبب إطلاق النيران ".

<u>شهادة من الشهداء</u>

وتدفقت دلال سلامة تتحدث عن أحد عشر يوما طويلا من أيام الحصار الإسرائيلي الذي بدأ من ناحية شارع القدس ومدخل كفر قلين، ثم تقدمت الدبابات ومن فوقها طائرات الهليوكوبتر من الشرق والغرب والجنوب.وتبعت ذلك ثلاثة أيام من الاقتحام والاحتلال. وطوال تلك الأيام والليالي، بكل ما فيها من ساعات ودقائق وثواني، كان شبان فلسطين الأبطال، يسجلون على صحيفة زمن الأمة الأسود، شهادة حق بحروف من نور تنبئ عن صدق رؤية النبي الذي رأى بظهر الغيب منذ ألف وأربعمائة سنة هذه الطائفة من البشر (على الحق ظاهرين لعدوهم قاهرين لا يضرهم من خالفهم إلا ما أصابهم من لأواء.. حتى يأتي أمر الله وهم كذلك ... وهم في بيت المقدس وأكناف بيت المقدس). وهذا لمن لا يعرف بعد هو نص الحديث النبوي المكتوب منذ بدأ تدوين الأحاديث في مسند الإمام أحمد بن حنبل قبل ألف من السنين.

في المرحلة الأولى من هذه المذبحة أريقت دماء الجنود السبعة الذين كانوا مرابطين على الحاجز الخاص بالأمن الوطني الفلسطيني خارج المخيم وقد بدأ الهجوم بقصف موقعهم. وبعد أن سكر شارون من احتساء هذا المشروب المفضل لديه في كؤوس الجماجم، طلب المزيد،

فأمده به متعهدو توريد الدماء الذين لا يحاربون الفلسطينيين إلا من وراء جدر محصنة أو حديد مصفح. وشرب السفاح العجوز المدمن على الدماء دماء ثمانية آخرين من فتية المخيم الذين سقطوا دفاعا عن كل ما لدى أمتهم من هوية وشرف وتاريخ.

لم تتوقف دلال طويلا أمام مآثر الشهداء وبطولاتهم الخارقة في هذه المعمعة غير المتكافئة. فقد أصبحت البطولة، كما أصبحت الشهادة، عملا يوميا في أنحاء فلسطين. فما نكاد نخرج من عزاء شهيد في المدينة حتى يدعونا الواجب للتعزية بشهيد في المخيم ولا تكاد تنطوي صفحة مواجهة عدوان في غزة حتى تفتح صفحة مواجهة عدوان في الضفة. وفي البداية فوجئ حتى أعرف الناس بشعبهم من هذا التهافت على التضحية والاستشهاد، لا لأنه جديد يخالف سير التاريخ الفلسطيني، وإنما لأن الفارق بين إمكانيات الطرف المعتدي والطرف المدافع لم يكن ضخما كما هو اليوم. وبسبب هذا الفارق الهائل أمكن للقوات الغازية احتلال المخيم. وأشارت دلال إلى ما أدى إليه الحصار الطويل بواسطة الدبابات ومدافعها ورشاشاتها والزج بطائرات الأباتشي في أعمال القصف الدقيق من أعباء على عاتق المدافعين الذين بلغ بهم السهر والإرهاق مبلغه إذ ظلوا لا ينامون وظلوا يقاومون، ونفذت ذخيرتهم وطعامهم دون أن يحظوا بأية إمدادات.

خيال تدميري قذر

وكان الهم الآخر الذي شغل بال دلال هو المشكلة التي سرعان ما سوف تبرز قريبا، وهي إعادة إسكان ألف نسمة من المخيم، (حتى ساعة إجراء المكالمة) لم تعد لهم بيوت صالحة لسكنى الآدميين. وحين سألتها:" كيف؟ هل بلغ عدد البيوت المنسوفة ألفا؟ " أجابت: لا، فالبيوت المنسوفة كليا أقل من ذلك بكثير. ولكن المحتلين عمدوا إلى تخريبها من الداخل. إذ قاموا بنسف وتهديم الجدران الداخلية. وأصبحت معظم البيوت المتجاورة مفتوحا بعضها على بعض،ويمكنك القول إن المخيم بأسره بناء آيل للسقوط ".

ومفهوم طبعا أن هذا اللون من التدمير اللئيم هو واحد من إبداعات العقلية والخيال الإجرامي المميز لمدرسة الإرهاب الشاروني. وقد أرادوا به تحقيق عدة أهداف في وقت واحد، فبالإضافة إلى التخريب والتنكيل والعقاب الجماعي أرادوا على الصعيد الإعلامي أن يخففوا من وقع الجريمة بالتخفيف من مظهرها الواضح للعيان، وربما أرادوا أن يتجنبوا المطالبات بالتعويض من قبل وكالة غوث اللاجئين التي بنت مخيمات اللاجئين أصلا، بعدما ثار حديث في بعض الصحف عن اعتزام الاتحاد الأوروبي مطالبة إسرائيل بالتعويض عن المباني التي أنشأها ثم دمرتها قوات الاحتلال في عملياتها التخريبية. وعندما شاهدنا على شاشات التلفزيون في مساء السبت طبيعة الخراب في بيوت المخيم انتبهنا إلى الأغراض العسكرية المقصودة من فتح البيوت بعضها على بعض للتعامل المكشوف مع الكتل السكنية التي كانت تخفي ما وراءها. وذكرت النائبة دلال سلامة أن جنود الاحتلال عمدوا إلى تحطيم الأثاث في بيوت المخيم بحيث لم تعد قطع الأثاث تصلح إلا للنيران. أما سيارات الأهالي في الطرقات فصارت طعمة للرصاص والقذائف الثقيلة.

صب الكاز على الطحين

ويعيد هذا إلى الأذهان الدمار اليومي الذي وقعه الطيران الإسرائيلي دون كلل ولا ملل في مباني السلطة الفلسطينية ومرافقها العامة، فضلا عن أسلوب الاحتلال المعتاد الذي عرفه الفلسطينيون دائما في المداهمات وأعمال (التمشيط) و (التفتيش) و (المطاردات الساخنة)،

وكلها تعابير يستخدمها الاحتلال يوميا لوصف إجراءاته التي يتعرض لها جميع الفلسطينيين في جميع المدن والقرى والأحياء والحارات، ولا يكاد يوجد فلسطيني واحد لم يتعرض للعنف الإسرائيلي أو على الأقل للإهانة والتهديد بالعنف، وكثيرا ما عمد الجنود إلى سرقة المقتنيات الثمينة، وكثيرا ما نفسوا حقدهم وكراهيتهم عن طريق إتلاف المواد الغذائية بصب الكاز على الطحين والزيت على السكر.. و..و.. بل إن حقد الحاقدين فيهم يتجلى حتى في اقتضاء رسوم الجمارك من المسافرين الفلسطينيين برغبة واضحة في تكبيد الخسارة وكيل الإهانات في وقت واحد.

كل هذا وغير هذا حدث في مخيم بلاطة. وعندما اتصلت مع الزميل النائب جمال الشاتي المقيم في جنين مستفسرا عما حدث في مخيم جنين، وجدته في مجلس العزاء. كان زوج شقيقته محمود العزب أحد الشهداء الذين دفعوا ضريبة الدم غداة احتلال المخيم. وكانت الدبابات ما زالت تقف على مشارفه غير بعيد عنه في حركة (إعادة تموضع)، بعدما استطاع شباب المقاومة إعطاب ثلاث دبابات.

<u>رحلة بالألوان!</u>

وكان جمال متأثرا على نحو خاص من واقعة استشهاد الشقيقين إياد وعرفات السايس بالنظر للفجيعة التي حلت بوالدتهما. وحدثني عن فتاة من المقاومات هي الشهيدة ماريا عز الدين أبوسرية التي استشهد جدها المجاهد المعروف الشيخ حسن أبو سرية عام ١٩٦٩. وحدثني أخيرا عن شاب متخلف عقليا قتله الجنود لمجرد ظهوره أمام نواظرهم ومرمى أسلحتهم. فالجنود مذعورون. وإسرافهم في القتل هو ترجمان من ناحية معينة لأحقادهم وتعبئتهم العنصرية ومن ناحية أخرى لذعرهم خشية أن يموتوا ويكون الموت نهاية كل شيء وفق تربيتهم ومفهومهم.

استخدمت قوات الاحتلال في جنين ومخيمها خطة شبيهة بخطتها في بلاطة ومخيمها ففاجأت بالقصف الكثيف مفرزة قوات الأمن الوطني واستشهد جنودها المدافعون، واستخدمت الدبابات في اقتحام المخيم تحت ستار كثيف من النيران من مختلف أعيرة الرشاشات الأوتوماتيكية وبطاريات المدفعية. وعندما سألت جمال الشاتي ما الذي تبين لكم أنه المعنى المقصود من المكابرة الإسرائيلية بإطلاق عبارة ((رحلة بالألوان)) على هذا الغزو العسكري الإجرامي، قال: لعل المعنى المراد هو أنها ستكون عملية تستخدم قوات الاحتلال فيها جميع ألوان الأسلحة.

يصعب التنبؤ بما سيكون عليه الحال غدا وبعد غد وفي الشهر القادم والسنة القادمة. بل يصعب التنبؤ بين ساعة وساعة. فقد بدأت بتحرير هذا المقال مساء السبت بعد أن تحدثت إلى الزميل والزميلة في جنين ونابلس. وعادة ما أرسل المقال للجريدة يوم الأحد. وفي صباح الأحد توالت الأخبار متلاحقة تتحدث عن رد الفعل الفلسطيني على احتلال المخيمات والتنكيل بأهلها. عملية بعد عملية. ثم جاء التصعيد الإسرائيلي في رام الله بواسطة طائرات إف ١٦. وسيكون لذلك ما بعده. لأن شارون وفريقه المختار لا يعرفون إلا الحرب وإلا الخراب. ونحن بتنا نعيش في مناطقنا الفلسطينية يوما فيوما منتظرين الأسوأ الذي تقبلناه نفسيا بعدما أوصلنا شارون إلى

تفضيل الموت على الحياة، وبعدما شفى أنفسنا أننا لسنا وحدنا الذين نموت. والإسرائيليون ما زالوا سادرين في وهمهم بأن في الوسع ترويع الفلسطينيين. والفلسطينيون تجاوزوا نقطة الحرص على الحياة. وإذا كان الشبان الذين لم يروا بدا من التصدي للهجمات الإسرائيلية هنا وهناك قد اعتادوا قراءة الفاتحة على أرواحهم في آخر اجتماع لهم قبل الاشتباك والتعاهد على الثبات، فإن سائر الفلسطينيين قد بلغوا مؤخرا هذه الدرجة من الاستقتال بعدما وجدوا أن القتل مقدر عليهم في جميع الأحوال. وقد أقسم لي أحد قادة الفصائل المقاتلة إنهم يجدون صعوبة حقيقية تكلفهم وقتا وجهدا في رد الشبان الذين يفدون تباعا في طلب إرسالهم لعمليات استشهادية.

أفعى النار

لم أعد أتذكر القصة التي رواها شيمون بيريس في وقت مبكر على مسامع شارون ومجلس وزرائه محذرا وناصحا إياهم أن لا يبالغوا في الاعتماد على الحل العسكري، لأن ذلك سوف يستنفر أفعى النار الفلسطينية التي قد يجهلها من لم يرها من قبل، أما من رآها فإنه لا ينساها.. بيد أن من المستحيل على كل حال أن يكون شارون وجماعته قد استنبطوا الدرس المستفاد حتى بعدما أصبح الشبان الفلسطينيون ينتقلون بسهولة وبسرعة من حالة تلقي الضربة إلى حالة الرد عليها ومن حالة الدفاع إلى حالة الهجوم.

فالمشكلة في مدرسة الجنرالات والحاخامات أن لديهم الكثير مما يعميهم عن مشاهدة الحقيقة. وأول شيء: هو حقدهم اللاإنساني الذي حقنوا به نفوسهم السوداء وتسمموا به وأدمنوا عليه. والثاني: أنهم كسبوا شعبيتهم الواسعة ووصلوا إلى كراسي الحكم عن طريق الظهور في أوساط الجمهرات الاسرائيلية بمظهر الأقوياء الذين يبعثون الرعب في أوصال العرب ويجلبون لليهود الأمن والاطمئنان. والثالث: أنهم هم الذين اجترأوا على التطوع لاختراق المناطق الآهلة بالمواطنين العرب في المناطق المحتلة عام ١٩٦٧، وقدموا أنصارهم ليكونوا (الرواد الإسرائيليين) الجدد، في إشارة إلى الغزاة الصهاينة الأوائل الذين أسسوا المستعمرات الأولى في فلسطين فأحاطهم الإعلام الصهيوني بهالات النجومية والعظمة حتى صدقت غالبية الجمهرات هذه الأكذوبة الكبيرة التي صارت جزءا من ثقافتهم، دون أن يقال لهم، لا سيما لأجيالهم الشابة، إن بريطانيا وليس المستجلبين اليهود هي التي أوجدت الاستيطان ورخصت به ووفرت له الحماية. والرابع: أن اعترافهم بوجوب تغيير نهجهم يعني في عرفهم أنهم اعترفوا بإفلاسهم وأنه لم يبق لهم إلا أن يعودوا إلى بيوتهم. والخامس والأهم أنه في ظل وجود بوش وإدارته في الولايات المتحدة، وفي ظل الحرب التي ما زالوا يسعرونها في أفغانستان والحرب التي يستعدون لها في العراق يبقى شارون متطلعا إلى تنفيذ استراتيجيته التي أفصح عنها قديما وهي مد نشاط القوات المسلحة الإسرائيلية شرقا إلى الباكستان وأفغانستان.

وعلى الصعيد السياسي من المستبعد عموما أن تختار الجمهرات الإسرائيلية حكومة من الحمائم في حال سقوط حكومة الجنرالات والحاخامات. فاليمين الإسرائيلي ما زال قادرا على إيصال نتنياهو للحكم. وليس من اليسير على نفسية من هذا الطراز أن تتخلى عن الطمع وشح النفس وتقرر إعادة الأرض لأصحابها.

الانقلاب

وفي الواقع إن شارون قام بتنفيذ الانقلاب الذي أوسعه نتنياهو من قبل تنظيرا وتبشيرا. أعني الانقلاب على مدريد وأوسلو، بل وعلى المؤسسات الإسرائيلية التي بدأت في تطبيق تلك

الاتفاقات أو التي ظنت مدرسة اليمين أن لدى أشخاصها استعدادا لتكملة الشوط. وكان اغتيال يتسحاك رابين بداية ذلك الانقلاب الكامل. وكان صعود نجم شاس وأمثال شاس دليلا على أن الانقلاب لم يكن ظاهرة علوية على السطح وحسب، وإنما هو ظاهرة متغلغلة في عقول الجمهرات الإسرائيلية التي مثلت في الانتخابات الماضية نسبة ٧٢% الذين انتخبوا شارون.

ومع أنه تبين فشل الانقلاب السياسي بعدما كان قد لوح للجمهرات أنه سيحل المشكلات دفعة واحدة، وغازل فيها الطمع والحقد وشح النفس المتأصل في تربيتها، فإن الأوان لم يحن بعد لانهيار رموز اليمين وفلسفة اليمين. وما زالت هناك مذابح في انتظارنا وفي انتظار الإسرائيليين. فنحن الفلسطينيين موعودون مع مطالع كثير من فصول الربيع بالمذابح؟ هل هي كرامة من كرامات شهدائنا في بيت المقدس وأكناف بيت المقدس أن يتضوع ريح دمائهم المسكي مع فوح أزاهير البرتقال؟ إننا ونحن نتشمم العبير القادم من مخيم بلاطة ومخيم جنين نستشعر هذا.

وربما أقدم شارون ونتنياهو على حملات تهجير لآلاف الفلسطينيين من الضفة والقطاع. وعند ذلك تعمم التجربة الفلسطينية في الدول العربية المجاورة رغم أنف المتخوفين الذين لا يحبون أن يروا ذلك اليوم. لقد استذكرت ذات مرة في مقال سابق كيف كان تهجير الفلسطينيين إلى الأردن بعد هزيمتنا عام ١٩٦٧مفجرا ميدانيا حقيقيا للثورة الفلسطينية التي ما زالت قائمة حتى اليوم. أما هذه المرة فإن ترحيل الفلسطينيين سوف يستثير ثورة من نوع مختلف، لا تكتفي بالوصول إلى دولة عن طريق التفاوض بل عن طريق التحرير لكامل التراب الفلسطيني. ولن تستطيع الولايات المتحدة نفسها أن تمنع ذلك. وستنهار حتما جميع الأنظمة التي لا تتوافق مع أكثر الشعارات والممارسات عنفا جذريا. فالسر كامن في إرادة الاستشهاد التي تستطيع أن تطغى على كل شيء. ولا حدود لقوة الإنسان إذا اتخذ قراره القطعي بالاستشهاد ولا عوائق أمامه أبدا. ومن خصائص هذه الحالة كما نعاينها أنها حالة سريعة العدوى والانتقال، لا سيما مع وجود أمثال شارون ونتنياهو وأضرابهما.

إذا انتقلت المعركة إلى البلدان العربية المجاورة سيكون الفلسطينيون نواتها التي سرعان ما سوف تراكم حولها القوى العربية الأكثر شبابا. وسوف تصير الطائرات الشراعية وسيلة قتالية للاستشهاديين الذين ستبلغ أعدادهم الآلاف وسيقلعون نحو غايتهم من كل صوب. وربما تكون لديهم أسلحة أقوى وترسانات أوسع. فهذه الأمة التي قال القذافي إنه لا يتشرف بالانتماء إليها، هي أمة الفداء والفتح. ولا يمكن أن يظل حالنا معها وحالها معنا كما قال حافظ ابراهيم:

أنا لولا أن لي من أمتي خاذلا ما بت أشكو النوبا

أمة قد فت في ساعدها بغضها الأهل وحب الغربا

تعشق الألقاب في غير العلا وتفدي بالنفوس الرتبا

وهي والأحداث تستهدفها تعشق اللهو وتوى الطربا

لا تبالي لعب القوم بها أم بها صرف الليالي لعبا!!